

الأدب واللغة من الكائنات الحية

للأديب محمد عثمان الصمدى

ينهض الأدب واللغة تبعا لنبوض الدولة وامتداد سلطانها ، ويقوى ساعداها بالقياس إلى قوة ساعد الدولة أيضا . هكذا يقول بعض الباحثين ومؤرخى الآداب والفنون . وقد يكون هذا أو بعضه حقا ؛ ولكن من الحق أيضا أن ليس الأمر مقصورا على اللغة أو الأدب أو الفن ، وإنما هو ينسحب على سائر مرافق الدولة ، وعناصر الحياة فيها ، وكل ما من شأنه أن يكون من مقوماتها . ولكنها تختلف ويسبق بعضها بعضا إلى الوجود بحسب الحاجة إليها ، والباعث عليها ، وبحسب ما يكتنفها من صعاب وعقاب . وأخيرا بحسب قدرة الدولة على الخلق والإيجاد ، أو البعث والإحياء . وإنما كان الأدب أسبقها جميعا إلى النمو والازدهار لأنه وليد الفطرة لا يحتاج إليه سائر العناصر والمرافق والقومات.. ولأمر ما أجاد الجاهليون الشعر

وقد عجب بعض الباحث من العربية حين قويت واشتد ساعدها في مدى العصر العباسى كله ؛ لأنها لم تأبه لما منبت به الدولة من تدهور سياسى فى القرن الرابع الهجرى . ثم عللوا ذلك بأن الفاتحين لم تكن لهم لغة جديدة بالإحياء . ولأنهم كانوا يتخذون الشعر دعابة لدولهم الناشئة . ولأنهم مع هذا كان لهم تمكن فى الأدب ومشاركة فى فنونه «

ولعل هذا أو بعضه أن يكون حقا . ولكن يجدر بنا أن نلاحظ مع هذا أن الأدب كائن حى كسائر الكائنات الحية . فنذا أن نمته الدولة بمد الجاهلية ، وأصبح يتلقى المؤثرات التى جاءت نتيجة للصراع السياسى وما إليه ، صار له من الأغراض والأهداف ما لم يكن له من قبل . وما هى إلا أن اتسمت هذه الأغراض وامتدت على مدى الأيام . وأصبح كثير من الشعراء يطرقونها لا لشيء إلا أنها موضع للاجادة والتفوق والتبريز .

وبمباراة أخرى أصبحت ضرورة فنية دون أن يكون لها من الحياة ما يوحى بها أو يحمل عليها . وإنما يوحى بها ما سبقها من آثار جاءت فى أول الأمر نتيجة لمؤثرات الحياة الواقعة ، وما تتمخض عنه من أحداث . ثم أصبحت هذه الآثار تؤثر بدورها كالحياة الواقعة فى الشعراء وأرباب البيان . ومن ثم فقد صار للأدب حياة قادرة على أن توحى وتلهم ، وعلى أن نمس النفوس فتفجرها أرحمة واهترأزا وطربا ، وعلى أن تأخذ بالقول إلى حيث تفكر وتقدر . وقليل أولئك الذين يفرضون أنفسهم وأدبهم عليها وعلى الأدب فرضا . وهم مع ذلك لا يكاد يخلو الأمر من أن يكونوا متأثرين تارة ومؤثرين أخرى . وإلى هذا فإن حياة الأدب ككل حياة يختلف عليها ما يختلف على سائر الكائنات الحية من قوة وضعف وتطور فى الغرض والوسيلة والآنجاه . إلى غير ذلك من ملامسة الزمن ومخالطة الحضارة التى يستمد الأدب جدته منها ، والتى تسمه آخر الأمر بيمسها فى اللفظ والمعنى والهدف والأداء . وإذا جاز لنا أن نشبه الأدب بالإنسان قلنا إنه يلبس الأدوار التى يلبسها الإنسان من طفولة فصبا فشباب فكهولة فشيخوخة قوت . ولنا نريد أن نقول إن الأدب عابث لاغ فى طفولته كالطفل . أو أنه قوى طاغ فى شبابه كالشباب ، وإنما نريد أن نقول إن الأدب كائن حى نام يحمل فى أدوار نموه عناصر الموت والفناء . وقد تطول أو تقصر إحدى هذه المراحل أو كلها مجتمعة بالنسبة إلى عوامل حضارية وأخرى ثقافية واجتماعية ، وإن كان لا تخلو كل مرحلة من آحاد يعيشون بأذواقهم وعقولهم فى بيئات سلفية أو مستقبلية . ففى عهد الطفولة تظهر الفطرة بجميع مميزات من حسنات وسيئات . لا تكاد ترتفع بصرها إلى السماء ولا تهبط إلى الأغوار ، وإنما تتخذ ما يحيط بها من حيوان ونبات وجماد موضوعا للقول وأداة للتشيل والتخييل . وهى لا تنزع إلى غايات اجتماعية أو إنسانية . ولا يمدو بصرها إذا امتد شؤون القبيلة وما هو من ذلك بسيل . تؤثر الكرم والوفاء ؛ وتأنف أن تنقيد بشى إلا ما يقيد به نفسه الرجل الحر . وأنت لا ترى عندها فرقا كبيرا بين الإباء والجلاح . أو بين الكرم والتضحية . أو بين الوفاء والوفاء . أو بين الشجاعة والهور . أو بين الصراحة والغلظة

صورة الحية التي كان قد رآها من قبل فيما رأى . فإن في لفظ الأفعموان وهو يتلوى ويمتد في النطق لدليل على ما يمتاز به من خصائص وميزات . ولو ذهبنا نفترض أن قبيلة من قبائل العرب كانت تدعوه حنشاً ، وأخرى كانت تدعوه (الأرقم) . ثم عرض لفظ الحنش للأخرى فلا تلبث أن تدرك على نحو ما يراد بهذا اللفظ من مدلول . ذلك لأنه مصور لخصائص عديدة فيه . فاللفظ في جملته مصور له وهو ممدود على النحو المروف . أما الحاء فهي منه بمثابة الرأس . وأما النون فتفيدنا دقة جسمه بحركتها المفتوحة وهي خارجة في النطق مع أخريها الحاء والشين هوائية هكذا . وكذلك الشين فهي ربما أعطتنا مغازلة الشمس لجلده وهو يتألق ومضا ولمعانا

محمد عثمان المصري

كلام بقية

والفظاظة . وبالتالي فهي تسم بالصدق ودقة الملاحظة وحرارة الإحساس ومعاطفة الائمة عطاها فلما نشعر بمثله نحن الآن . وهي نحن حيننا قويا إلى تحقيق قول القائل

أطيب الطيبات قتل الأعدى واختيال على متون الجياد
ورسول يأتي بوعد حبيب وجيب يأتي بلا ميماد
ثم إن شعر الرثاء فيها لا تكاد نجد له مثيلا في الصدق والحرارة في سائر المراحل والمهود التي تليها جميعا . وهي جامدة لا تكاد تتطور إلا يحدث يهزها هزا عنيفا ، وينال منها ومن تقاليدها وعرفها نيلا شديدا . ولكنها تقاومه أحيانا وتدعن له حيننا . يظهر ذلك في حياة الأدب عامة . وفي حياة المعنيين بالإذعان والمقاومة على وجه خاص . ومن ثم فقد ظفرت حياة الأدب بشئ من التطور والانتقال ، ووسعت أغراضا جديدة ، وأحيت مثليات قديمة . وأصبحت في صبا غض تفتح فيه المدايك وتهبأ لما عسى أن يتكشف عنه عهد الشباب من دوافع البعث والإيقاظ . وإذن قد صار لها امتداد مكفول يأتيها من نفسها حيننا ، ومما حولها حيننا آخر . ونحن حين ننظر إلى عهود الخلفاء الراشدين بحسبانها امتداداً لعهد النبوة . كذلك نرى الأدب في ظلها امتدادا لذلك العهد أيضا . ولا تكاد ندع هذه العهود إلى عصر بنى أمية حتى يدخل الأدب مرحلة الشباب من حياته . وهنا يقوى حقا قوة لم نر ما يقرب منها في سائر المراحل والمهود . وإن لم يسع من الأغراض ما وسعه في العصر العباسي بمهديه أوله وأنيته . فالسلائق كمهداها من قبل غنائية لم تتغدد بضروب الثقافات ، ولم تصبج رواسب عقلية كما سزى فيما بعد . ولكنها تصدر عن تلك النفس العربية السمحة الكريمة ، نازعة إلى مثل عليها هي جماع الخلال الرفيعة للعربي في الحب والأدب والسياسة والاجتماع

أما اللغة فقد نالها غير قليل من التطور والصقل والرونة . ذلك لأن العربي في عهود اللغة الأولى كان يحس في اللفظة الواحدة شحنة عاطفية وجدانية . وكانت صوتية الائمة تصور له الدلالات تصويراً ليس إلى مثله من سبيل . في زمننا هذا إلا بالجل الفمغفانة والبارات ، فلو أن عربيا رأى حية ولم يكن عرف اسمها من قبل ، ثم ذكرت له لفظة الأفعموان وهو جاهل بها أيضا لو ثبت إلى ذهنه

آلام فرتر

للاستاذ أحمد حسن الزيات

هي القصة العالمية الواقعية الخالدة للشاعر

الفيلسوف « جوته » الألماني

صور فيها : عواطف الشباب في وقت تزوجه

إلى الحب وولوعه بالجمال وأتماده مع الطبيعة ...

وقد قال عنها لصديقه (أ كيرمان)

« كل امرء يأتي عليه حين من دهره يظن فيه

أن (آلام فرتر) إنما كتبت له خاصة »

ترجمتها العربية تتفق مع أصلها في قوة

الأسلوب ودقته وأناقته وجماله ... وهي مثال

لترجمة الأمانة التي تنقل الصورة والفكرة وما يقوم

بهما من الروح والخيال والماعطفة ...

طبعت خمس مرات وثمها ٤٠ قرشاً عدا أجرة البريد